

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور إبراهيم يومي مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

- ٦ -

قد يكون أنصار المادية المفرطة معذورين في زعمهم أن ليس ثمت إلا الجسم وأجهزته والمنح وآثاره، فانهم يرجعون الظواهر العقلية على اختلافها إلى مصدر ثابت ومنبع معين. كما أن المثاليين الغلاة يتفادون بعض الصعوبات حين يذهبون إلى أن النفس وحدها هي الحقيقة، وما وراءها صور وأوهام فان هؤلاء وهؤلاء لا يعترفون إلا بأصل واحد ماديا كان أو روحيا ينبون عليه تفسيراتهم وحلولهم. أما من يقولون بالجسم والنفس، بالمادى والروحى، بالثنائية على العموم، فانهم يصطدمون بعقبة لم يجدوا السبيل إلى تذليلها. وكيف يمكن ربط المختلف والتوفيق بين المتنافر وضم أمرين من طبيعتين متغايرتين أحدهما إلى الآخر؟ لهذا كانت الصلة بين الجسم والنفس عقدة العقد ومشكل المشاكل في كل مراحل التاريخ

فقدما نرى أفلاطون، وهو أكبر ممثل للثنائية لدى اليونان، مضطرباً وغامضاً إزاء هذه المشكلة، فيقول حيناً إن النفس متميزة كل التميز من الجسم وانها الانسان على الحقيقة، ويظن حيناً آخر أنهما على اتصال وثيق وبينهما عراك دائم، فالجسم يصرف النفس عن الفكر ويجلب عليها آلاما كثيرة بميوله وأهوائه، وهى من جهة أخرى تحاربه وتجذب في الخلاص منه، ولكن كيف يتم هذا التفاعل ويلتقى الجسم بالنفس ويؤثر كل منهما في الآخر؟ هذا ما لم يجب عليه أفلاطون. ولعل أرسطو قد حاول التخلص من هذا المأزق حين ذهب إلى أن النفس صورة للجسم؛ والصورة والمادة متصلان ومتداخلان بحيث يكونان شيئا واحداً. بيد أن هذا الحل غامض كذلك ولا يخطو بنا إلى الامام كثيراً. ومع هذا فقد قرر له نجاح كبير في القرون الوسطى؛ فان أغلب الفلاسفة المدرسين يزعمون أن النفس صورة للجسم في الوقت الذى

يقررون فيه أنها جوهر روحى ذو شخصية مستقلة، وهذا تناقض مكشوف

وفى التاريخ الحديث يعيدها ديكارت جذعة، ويشير هذا الموضوع في شكل حاد، ويقول بجوهرية الجسم والنفس معاً مبرزاً الأول بالحيز والثانية بالتفكير؛ وهذه هى الثنائية الأفلاطونية في أجلى مظهر. ولكن عبثاً حاول ربط هذين الجوهرين أو إيجاد علاقة بينهما. ثم طمع أتباعه في أن يتلافوا هذا النقص فلم يكونوا أعظم منه خطأ. وربما كانت فكرة التناسق الأزلئ التى قال بها ليبنتز هى أشهر محاولة في هذا الباب، فهو يعتقد أن الجسم والنفس نسقا أزلا بحيث يتفقان وإن صار كل منهما في طريق خاصة؛ وخضوع الأول لقوانين السبية لا يحول دونه، والارتباط بالآخيرة التى تخضع لقوانين الفانية. وما أشبههما بساعتين محكمتى الصنع تلتقيان في قياس الزمن، وإن كانتا تبتزانه بأشكال مختلفة. تصوير جميل ومهارة في التوفيق، شأن ليبنتز في كل فلسفته؛ غير أنه في الواقع توفيق صوري وربط خيالى، فان مؤداه أن لاصلة بين الجسم والنفس، أو أن الصلة بينهما أنهما لا يتعارضان ولا يتعاكسان

لم يغفل ابن سينا هذه المشكلة ولم يتردد في حلها وتوضيحها، وكيف يغفلها وهو من أنصار الروحية والثنائية؟ وقد سبق لنا أن لخصنا البراهين العديدة التى يستدل بها على جوهرية النفس وروحانيتها. وفى رأيه أن الجسم والنفس متصلان اتصالاً وثيقاً ومتعاونان دون انقطاع. فلولا النفس ما كان الجسم، فانها مصدر حياته والمديرة لأمره والمنظمة لقواه. ولولا الجسم ما كانت النفس، فان تهيوه لقبولها شرط لوجودها، وتخصصه بها مبدأ وحدتها واستقلالها؛ ولا يمكن أن توجد نفس إلا أن وجدت المادة الجسمية المعدة لها؛ فهى منذ نشأتها تواقع إلى الجسم ومتعلقة به ومخلوقة لأجله. وفى أدائها لمهامها الكثيرة تستخدمه وتعول عليه. ويكفى أن نشير إلى التفكير الذى هو عملها الخاص فانه لا يتم إلا أن أزقتها الحواس بآثارها^(١). وواضح أن العقل ذو دخل كبير في الجسمى، فرب فكرة هيجت الجسم وأحدثت فيه انفعالات كثيرة،

(١) ابن سينا، الشفاء، ج ١، ص ٢٥٢ - ٢٥٣: النجاة، ٢٩٧ - ٢٩٩.

شيء من التصرف، فتراه لدى الفارابي كما نراه لدى ابن سينا وأغلب الأطباء والفلاسفة المسلمين. والروح التي تربط القوى النفسية باجزاء الجسم وتنفذ أوامرها ليست شيئاً آخر سوى الأنبيا (Pneuma) التي قال بها اليونانيون الأول. وذلك أن ديوجين الأبولوني يزعم أن التفكير إنما يتولد من ذلك الهواء الذي يسبح في أورددة الجسم وشرائبه^(١). ويقول هيرافليط إن التنفس يغذي النفس بالهواء الذي لولاه ما كانت حياة ولا عقل^(٢) ومن هنا تولدت نظرية الأنبيا التي لعبت دوراً هاماً في الفسيولوجيا وعلم النفس القديم.

ومعظم أطباء الأغريق لا يرون في الأنبيا مصدر القوة والحرارة الانسانية فقط، بل يعدونها منبع التفكير، وكثيراً ما يخلطون بينها وبين النفس. والرواقيون بوجه خاص وإن قالوا بجسميتها يصفونها بكل الصفات الروحية. وقد قدر لهذه الفكرة أن تحيا إلى أن استكشفت الدورة الدموية التي قامت على أنقاضها. ويظهر أن قسطا بن لوقا البعلبكي والمترجم المشهور المتوفى سنة ٨٣٥ ميلادية هو أول من أدخلها في العالم العربي، فقد كتب بحثاً صغيراً فرق فيه بين النفس والروح^(٣) فبينما الأولى في رأيه جوهر روحي بسيط غير قابل للفناء إذا بالثانية جسم لطيف يشرف على أعمالنا العضوية والعقلية، وإذا ما توقف عن الحركة كان الموت. فالروح إذن أداة النفس وبواسطتها يتحرك الجسم وبعد الإدراك، وبذا استطاع قسطا أن يوفق بين الأنبيا التي يعول عليها الأطباء والنفس التي ينادى بها الفلاسفة، وقد سار على سنته من جاء بعده من مفكري الاسلام.

وأما الصلة بين القلب والدماغ وأثرهما في الظواهر النفسية فتلك نقطة خلاف بين أرسطو وجالينوس. ففي حين أن الفيلسوف يرى أن القلب هو مركز القوى النفسية الرئيسية نجد الطبيب يصعد بذلك إلى الرأس ويعتبره المهيمن على كل الحياة العقلية. وابن سينا، وإن كانت منزلته الطبية لا تقل عن درجته الفلسفية، لا يتردد في أن ينتصر لأرسطو. ويصرح، على أي أساس لا أدري، أن الفلاسفة هم أصحاب

والجسمي أيضاً أثر على العقلي، فقد تنتج الحركة فكرة ويبحث اعتدال المزاج على الغبطة والسرور^(١). يقول ابن سينا: «انظر أنك إذا استشعرت جانب الله وفكرت في جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاشة غضباً من نفس بعض^(٢)».

فهناك علاقة إذن بين الجسم والنفس وتأثير متبادل؛ وهذا قدر يتفق عليه كل أنصار المذهب الروحي ولا يعز عليهم إثباته، ولكن المشكلة هي: كيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقي الجسم بالنفس؟ لكي يجيب ابن سينا على هذا السؤال يلجأ إلى طبه مستمداً منه بعض الملاحظات الفسيولوجية، فيوزع أولاً قوى النفس المختلفة على أجزاء الرأس ويعد لكل واحدة منها مقراً معيناً، فالخس المشترك مثلاً متمركز في أول التجويف المقدم للدماغ، والمصورة في آخر هذا التجويف، والوهم في نهاية التجويف الأوسط، والحافظة في التجويف المؤخر^(٣). ويلاحظ ثانياً أنه لا بد لهذه القوى من خدم تنفذ أوامرها ومطايا تحمل آثارها. ودهطتها جميعاً جسم لطيف روحاني منتشر في الجسم، يخرج من القلب ويمتد إلى سائر الأطراف، ولا أدل على هذا من أنه إذا تصلب أو انسدت مسالكه انقطعت الحركة والإحساس. وهذا الجسم هو الروح التي تمتد الأعضاء بالحرارة الضرورية للحياة وتربط القوى النفسية بعضها ببعض، فكان القلب الجزء الرئيسي الذي يلتقي فيه الروحي بالمادى والعقلي بالجسمي. حقا إن الدماغ يشرف على الجهاز العصبي ويتقبل الاحساسات ويدفع إلى الحركة، ولكنه هو أيضاً خاضع للقلب ومحتاج إلى الحرارة العضوية التي يبعث بها إليه^(٤).

هذه الفسيولوجيا تصعد إلى جالينوس وأبقراط وتمت بنسب إلى أرسطو. فإن تركيز قوى النفس في مناطق خاصة من الدماغ أمر عني به جالينوس، ثم أخذه عنه العرب في

(١) Janer, Hisr. de la philos., 744.

(٢) I bid., 752.

(٣) وصلنا هذا البحث عن طريق اللاتينية والعربية: ولقد نشر الاب لوبس شعخو الاصل العربي سنة ١٩١١.

(١) الانوارات، ١١١.

(٢) المصدر نفسه، ١٢١ - ١٢٢.

(٣) النجاة، ٢٦٦.

(٤) الشفاء، ج ١، ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

في أدب المقارن

القصص

في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ نوري أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعان في الإنسان ، فهو كما يميل تبعاً لغيره الاستطلاع إلى مشاهدته حوادث الحياة تترى أمام عينيه ، يميل إلى حكايته لغيره كما رآها أو تخيلها ؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له ، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه . والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول . وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص ، وإلى القصص يلجأ بداية كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق ، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف ، وبه شغف الإنسان في عهد طفولته التاريخية .

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً ، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى ، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم ، فما من شيء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة ، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلقه ، فكان قصص تلك العهود علوماً بالخرافات والأوهام ، دأبوا حول لالهة والملوك والابطال والقبائل ، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات . وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر ، يمثل في أساطير الأولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان ، وبارتقاء الجماعة العقلية يتخلص العلم ويبدأ من آثار العصور والخرافه ويختص الأدب بتلك الآثار وتمثل في شعر الملاحم وما شا كل وإذا ما ظهر النثر الفني فقد ولت في آثاره أساطير الأولين تلك ، وإن بطل الاعتقاد في كثير منها ، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره ، فالتخذ وسيلة لاسداء المواقظ وإذاعة التجارب وتحجيد القضية . أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على السنة الطير والحيوان ، أو أفواه الأرواح

الرأى والذين يستطيعون الفصل في مثل هذه المسائل ، ومع هذا فإنه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل في الحركة والاحساس . ومهما يكن فلعل هذه الآراء هي منبع تعريف العقل المشهور الذي رددته المتأخرون من مؤلفي العرب ، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله في القلب ولها شعاع متصل بالدماغ لانظن أنا في حاجة إلى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فإن كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الانبعاث وما يتفرع عنها ، ودراسة الجهاز العصبي الحديثة لا تدع مجالاً لتلك الآراء التي كانت تعد القلب المركز الرئيسي للحياة النفسية . والنظرية القائلة بتوزيع المخ إلى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص ، وإن كانت قد صادفت أنصاراً عديدين في القرن التاسع عشر ، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعاً . على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظري ، ويخلط المادى بالروحي دون أن يوضح كيف يتفاعلان ؛ والصعوبة كل الصعوبة في توضيح هذا التفاعل . فهو إذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم يأتنا فيها بجديد ؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكاراً أرسطية إلى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تناقض أو تعارض .

(يتبع)

ابراهيم مكرم

الحاكم بأمر الله

واسرار الدعوة الفاطمية

بقلم محمد عبد الله عنان

وهو آثم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسسى ؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد في نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث
أجود طبع وزين بالصور التاريخية

ثمنه ٢٠ قرشا والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج
يرسل من المؤلف بفرانته بشارع الماسي نمرة ٢١ ومن مجلة الرسالة
ومكتبة النهضة بشارع المدامع وسائر المكاتب الأخرى